1- تعريف الاثنوغرافيا(L'ethnographie):

الإثنوغرافيا هي دراسة وصفية لأنشطة جماعة إنسانية معينة، سواء أكانت جماعة بدائية تقليدية أم جماعة معاصرة ومتمدنة، بالتركيز على بنيات القرابة، والتقنيات المادية، والمعتقدات الدينية، والتنظيم المجتمعي... وتعد منهجية استكشافية تطبيقية في البحث العلمي في مجالي الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية[1].

أما الأنثروبولوجي الإنجليزي **رادكليف براون**، يعرفها بأنها بمثابة معاينة الظواهر الثقافية ووصفها، خاصة عند الشعوب المتخلفة[2]. وتوظف كذلك في علم الاجتماع[3]. لكونها تهتم بوصف الواقع أي الحياة اليومية لمجتمع ما خلال فترة زمنية معينة، متضمناً ذلك مجموع القيم والتقاليد والعادات والآداب والفنون، وكل ما يندرج تحت ذلك الكل المركّب الذي اصطلح على الإشارة إليه بكلمة ثقافة[4] .

إذا، فالإثنوغرافيا عبارة عن دراسات تطبيقية وصفية لمعرفة كيفية تنظيم المجتمع باستخدام الملاحظة. لمعرفة اسلوب الحياة، ومجموعة التقاليد، والعادات، والقيم، والأدوات والفنون، والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة، خلال فترة زمنية محددة، أين يكون الباحث مشارك وعنصر من مجتمع البحث.

[1] Jean Copans, L'enquête ethnologique de terrain, Paris, Nathan, 1998.

[2]جاك لومبار: مدخل إلى الإثنولوجيا، ترجمة: حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،الطبعة الأولى سنة 1997م، ص:12.

[3] Coulon A. L'école de Chicago. Paris : PUF, 1992

[4]حسين فهيم، أدب الرحلات، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة، العدد 138، (يونيو/1989)، ص 14.

2-التطور التاريخي للاثنوغرافيا:

لم يظهر مصطلح الإثنوغرافيا إلا في سنة 1767، حيث ورد هذا المفهوم في كتاب **جوهان فردريك شوبيرلان** (1732-1772) Johann Friedrich Schöpperlin، وكان المصطلح يعني باقة من طبعات الكتب المتنوعة والمختلفة. وبعد ذلك، تأسست بفرنسا جمعية إثنولوجية سنة 1839م تهتم بالإثنولوجيا الطبيعية والثقافية من جهة، والبحث الإثنوغرافي من جهة أخرى. وكانت الإثنوغرافيا في روسيا تعني علم الشعوب[1].

ولقد انتشرت الدراسات الإثنوغرافية كثيرا بفعل الاستعمار في **القرن الثامن عشر**، وكان الهدف منها دراسة الشعوب المستعمرة، والبحث عن خصوصياتها الإثنية، واللغوية، والعرقية، والاجتماعية، والثقافية، والحضارية، ولقد استعان بها المبشرون في حملاتهم التنصيرية بشكل خاص. (لصعوبة فهم القبائل في إفريقيا خاصة) [2].

وبعد انتهاء الاستعمار، تخلت الدول الغربية عن دراسة الشعوب الضعيفة والمتخلفة والبدائية لتنكب على مجتمعاتها وجماعاتها الخاصة بها. ومن ثم، فلقد انفتحت الإثنوغرافيا على موضوعات معاصرة كدراسة الطبقات الاجتماعية، ودراسة الإثنيات والأقليات والهويات المجتمعية القليلة العدد، ودراسة الجماعات الغريبة والمختلفة عن الجماعات المتحضرة والمتمدنة، ودراسة جماعات المدرسة... وكان **مارسيل غريول** هو الذي حدد في كتابه (منهج الإثنوغرافيا)، بأنها الفرع المعرفي الذي يحيط بأنشطة

[1] جاك لومبار، مرجع سبق ذكره، ص:12.
[2] من محاضرات د. مخلوف بوكروح، مادة المنهج الاثنوغرافي، جامعة الجزائر 3، 2013.

الشعوب المادية والروحية، ويدرس تقنياتها وأديانها وشرائعها ومؤسساتها السياسية والاقتصادية وفنونها ولغاتها وأعرافها [1].

انتشرت هذه الدراسات في الجزائر بإنشاء جامعة الجزائر عام 1909 (أي في بداية القرن 20)، هدفها الأساسي هو دراسة الشعوب التي لا تعلم عنها شيئا من جانب السلوك، والعادات والتقاليد... وخاصة من الجانب الديني ومحاولة تحضير هذه المجتمعات، أي كانت لفرنسا: مهمة دينية وحضرية.

ألغي هذا التخصص في الجزائر في بداية السبعينات من القرن الماضي، باعتباره منهج استعماري أي أنه مرتبط بالحملات الاستعمارية.

3-خصائص المنهج الاثنوغرافي:

من أهم خصائص المنهج الاثنوغرافي نذكر:[2]

- يختلف المنهج الاثنوغرافي عن باقي الأبحاث الأخرى بمنهجيته في إجراءاته وأهدافه حيث أنه يقتضي قيام الباحث بمعايشة المجتمع موضوع الدراسة، وما يميزه عن باقي الأبحاث الكمية ففي المنهج الاثنوغرافي يمكن للباحث أن يثير ردود أفعال معتمدة لدى المبحوث وتلك الطريقة تسهل اكتشاف أهم السلوكيات والقيم...
- التعمق والتجرد من أي أحكام سابقة وعدم الاندهاش من أي شيء قد يبدو لديه غريبا.
- محاولة التعايش مع العينة أي داخل المجتمعات المدروسة دون الوقوع في خطر الذاتية (مصداقية الباحث فهو مطالب بالموضوعية التامة) يعتبر من أهم الشروط الواجب التقيّد بها.

[1] جاك لومبار، نفس المرجع السابق، ص:12.
[2] مارك أوجيه وجان بول كولاين: الأنثروبولوجيا، ترجمة: جورج كتوره، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2008م، ص: 71-72.

- التمكن من اللغات وتجنب الاعتماد على مترجم لأن ذلك قد يفقد العمل مصداقيته.
- تدرس العادات والأعراف والتقاليد والطقوس والمعتقدات الدينية لجماعة محددة، في زمن ومكان معينين، بالتنقيب والاستكشاف ومعاينة الظواهر.
- يهتم المنهج الإثنوغرافي أيضا بدراسة طبيعة الشعوب القديمة وثقافاتها، وتعنى بأساليب عيشها، وتنكب على أنماط حياتها... علاوة على دراسة الجماعات المحلية والبدوية والقروية، والاهتمام بالجماعات المنعزلة الغريبة عن المجتمعات الحاضرة، ودراسة القبائل والعشائر المختلفة عن الشعوب المتمدنة والمتحضرة. فضلا عن العناية بمشاكل الجماعات والمجموعات التي يعرفها عالمنا المعاصر[1].
- يهتم كذلك المنهج الإثنوغرافي بدراسة مواضيع معاصرة جديدة كالتركيز على المدرسة والجماعة على المستوى المحلي، ودراسة المؤسسة والفصل الدراسي في ضوء المجتمع المصغر، مع الاستعانة بالملاحظة والمعايشة وطرائق البحث الميداني، واستعمال المقابلة بشتى أنواعها، والتركيز على الوحدات الصغرى، مثل: المتعلم، والمعلم، إلخ...[2].
- على الباحث الابتعاد عن المبالغة في التأويل[3].

[1] محمد عبده محجوب: الأنتروبولوجيا الاجتماعية، دراسات نظرية وتطبيقية، دار المعرفة الجامعية، مصر، الطبعة الأولى سنة 2009م، ص:13.

[2] Sirota.R : (Approches ethnographiques en sociologie de l'éducation : l'école et la communauté, l'établissement scolaire, la classe), in : sociologie de l'éducation (dix ans de recherches), L'Harmattan, 1990, pp : 180-181.

[3] مارك أوجيه وجان بول كولاين، نفس المرجع السابق، ص73.

4-أدوات الدراسة:

يعتمد الباحث الاثنوغرافي على:

أ- الملاحظة:

تعتبر الملاحظة من أقدم وسائل جمع البيانات والمعلومات الخاصة بظاهرة ما، حيث استخدمت من قبل القدماء في مجال الظواهر الطبيعية مثل خسوف القمر والزلزال وغيرها من الظواهر، ثم انتقل استخدامها إلى العلوم الاجتماعية والانسانية.

و يمكن تعريف الملاحظة على أنها: عملية مراقبة أو مشاهدة لسلوك الظواهر والمشكلات والأحداث ومكوناتها المادية و البيئية و متابعة سيرها و اتجاهاتها و علاقاتها بأسلوب علمي منظم ومخطط وهادف بقصد التفسير و تحديد العلاقة بين المتغيرات و التنبؤ بسلوك الظاهرة و توجيهها لخدمة أغراض الإنسان و تلبية احتياجاته [1]. وتنقسم الملاحظة إلى قسمين: [2]

- **الملاحظة بالمشاركة:** هو أن يخضع الباحث نفسه إلى الظروف المختلفة لمجتمع البحث من حيث المشاركة ومن حيث الحياة المادية لأفرادهم والقيام بأعمال وتصرفات من شأنها أن تحافظ الوضع العادي للمجال الدروس. ومن شروط نجاحها حدد **بريشارد ايفانز** عدة عناصر وهي:
  - ✓ يجب على الباحث قضاء وقت طويل في البحث.
  - ✓ يكون للباحث صلة وطيدة بالمجتمع المدروس.
  - ✓ تمكن الباحث من استخدام لغة مجتمع البحث (بدون مترجم).
  - ✓ التخلي عن قيمه وعاداته...

[1] محمد عبيدات وآخرون، منهجية البحث العلمي القواعد والمراحل التطبيقية، كلية الاقتصاد والعلوم الإدارية، الجامعة الأردنية، الأردن،1999، ص 80.

[2] أحمد بن مرسلي: مناهج البحث العلمي في علوم الإعلام والاتصال، مرجع سبق ذكره، ص 201-202.

- **الملاحظة دون المشاركة:** يكتفي فيها الباحث بملاحظة المجتمع دون مشاركة حياتهم الخاصة أي إجراء الملاحظة من الخارج بصورة مستقلة ومنفصلة عن المجال المدروس، وهذا هو النوع المستخدم بكثرة في الدراسات الاثنوغرافية.

ب-المقابلة:

تعرف المقابلة بأنها محادثة موجهة يقوم بها فرد مع آخر أو مع أفراد، بهدف الحصول على أنواع الاستخدام في بحث علمي، أو الاستعانة بها في عمليات التوجيه والتشخيص والعلاج. ويوجد نوعان من المقابلة؛ **المقابلة الغير الموجهة:** مثل النقاشات العادية التي تحتمل النقاش المفتوح دون تحديد مسبق للأسئلة وهي تتيح للمبحوث الشعور بالاطمئنان. و**المقابلة الموجهة:** هي التي تعتمد على التحضير المسبق للأسئلة بطريقة مقننة قبل إجراء المقابلة بهدف جمع المعلومات والبيانات المراد الوصول إليها، وسير الحوار بمقتضاها ولا يخرج عن نطاق هيكلتها من حيث الالتزام التام بالإجابة على الاستفسارات[1].

تعتبر المقابلة من أهم الوسائل البحثية لجمع المعلومات والبيانات من الميدان الاجتماعي وهي مكملة للملاحظة من اجل جمع الحقائق والبيانات المتعلقة بموضوع البحث، لا يمكن للباحث التعرف على الحقائق ولا يستطيع تبويبها ولا تصنيفها، ولا يمكنه أيضا تحليلها علميا فالقابلة تساعده على التوصل الى النتائج النهائية التي يستعملها في الكشف عن جوانبه المختلفة، فلها أهمية كبيرة في الدراسات **الاثنوغرافية** ومناسبة لها لمعرفة الكيفية التي يدرك بها الناس، وللتعرف على سلوكياتهم وفهم

[1] محمد محمود ذنيبات وعمار بوحوش، مناهجا لبحث العلمي وطرق إعداد البحوث، ط3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2001، ص75.

المسببات التي أدت لتلك السلوكيات الملاحظة، يتسنى للباحث طرح الأسئلة بطريقة مرنة مما يشعر المستجوب بالراحة لفهم السلوكيات الغامضة.

ت- الاختبارات النفسية.

ث-**الوثائق الشخصية،** وتتضمن المذكرات والرسائل الشخصية مثلا، **والوثائق الرسمية،** وتتمثل أساسا في شهادات الميلاد، وشهادات الوفاة، ونصوص اجتماعات، وأوراق العمل، ومسودات، مخطوطات...

5-خطوات بناء المنهج الإثنوغرافي:

الإثنوغرافيا منهجية حقلية ميدانية تطبيقية وعملية. ومن ثم، فهي دراسة وصفية وتحليلية ميدانية لمختلف قيم وعادات الشعوب، ولاسيما الشعوب البدائية والمعاصرة. ومن هنا، يستند البحث الإثنوغرافي إلى مجموعة من الخطوات العملية والإجرائية والمتمثلة في:

- اختيار المشروع الاثنوغرافي.
- طرح الأسئلة الاثنوغرافية.
- جمع البيانات الاثنوغرافية (من خلال الدراسة الميدانية وباستخدام أدوات البحث).
- عمل سجل الاثنوغرافي.
- تحليل البيانات الاثنوغرافية.
- كتابة التقرير.

6-إثنوغرافيا الجمهور والمستخدمين:

يتناول البحث الاثنوغرافي في وسائل الاعلام، كيفية تتعامل الجماعات مع الوسيلة الإعلامية المعينة، ومن ثقافة معينة كذلك، أي تدرس الاختلافات اتجاه الرسائل الإعلامية (جماهيرية/ جديدة). وهذا راجع إلى وجود البث المباشر للتلفزيون عبر لأقمار الصناعية (الثمانينات من القرن الماضي)، حيث اتخذت الرسائل الإعلامية طابعا كونيا وأصبحت عابرة للشعوب.

تستمد الاثنوغرافيا الحديثة مشروعيتها من الرسائل الإعلامية ذات الطابع الكوني من خلال المعايشة، أي يصبح الباحث عنصرا أساسيا في مجتمع البحث أين يستخدم مختلف الأدوات البحثية (سابقة الذكر) خاصة الملاحظة بالمشاركة)، لدراسة سلوك المتلقي (جمهور/ مستخدم) اتجاه الرسائل الإعلامية في المجتمعات.

بدأت تتجه الدراسات الكمية للوصول إلى الحقائق المتعلقة بالجمهور (دراسة التأثير) وذلك منذ أن قررت الولايات المتحدة الأمريكية التخلي عن الأقمار الصناعية جزئيا في الاتصالات العسكرية ووضعها في الجانب التجاري. أصبح المنهج الاثنوغرافي مستخدم بكثرة في مجال علوم الاعلام والاتصال وذلك راجع إلى:

- تغير فضاء الاتصال بوجود التقنيات الجديدة على التلفزيون (اللون، والبث المباشر، والرقمي، ووجود الأنترنت...)
- توسعت التكنولوجيات المنزلية ليصبح التلفزيون أهمها على الإطلاق.
- دراسة دافيد مورلي كانت من أهم الدراسات الاثنوغرافية في ذلك الوقت.

- **دراسة دايفد مورليMorley David :**

تعتبر دراسة مورلي من أهم الدراسات التي طرحت موضوع حول التلقي المرتبط بوسيلة التلفزيون، حيث تنطلق دراسته television Family عام 1986 من فكرة أن الجمهور نشط وفعّال، و ذلك بتوضيح صيرورة عملية المشاهدة في السياق الأسري فاهتم بصيرورة مشاهدة التلفزيون مستخدما المنهج الإثنوغرافي ، فقام بدراسة 18 عائلة بريطانية (جنوب لندن) تتكون الأسرة من شخصين بالغين وطفلين غلى الاقل لا يتجاوز عمرهما 18 سنة ينتمون إلى الطبقة العاملة ذات مستوى اجتماعي و ثقافي مختلف فعمل على استجوابهم وملاحظتهم بهدف اكتشاف الاختلافات بين الأسر وداخل كل أسرة (بين أفرادها) **و ركز مورلي على علاقات السلطة بين الأفراد** دون إهمال إطار تحليل بينة الجمهور من حيث الطبقة و التعليم و الاديولوجية ، فكانت هذه الدراسة انطلاقة لعدة دراسات تهتم بالتحليل الجزئي (الأسرة) فهي تطمح لتطويع العائلة أو الأسرة كمكان فعال للممارسات الاجتماعية التي تتم تحت تأثير المحيط الاجتماعي والثقافي من جهة وتأثير الصفات الخاصة بكل أسرة من جهة أخرى.

أصبح مورلي يهتم بمجموع التكنولوجيات المنزلية للإعلام والاتصال بما فيها التلفزيون وحاول تعريف فضاء النقاشات حول دور وسائل الإعلام في بناء وتكوين الهويات الثقافية. فدراسته تمثلت أساسا في دراسة علاقة السلطة في اتخاذ القرار من خلال دراسة عدة عناصر والمتمثلة في:

- اختيار القناة.
- اختيار البرنامج.
- من يتخذ القرار (من الجنسين).

- العلاقة بين الذكر والأنثى.

-العلاقة بين البالغين والقصر (هل لديهم حرية مطلقة أو توجد رقابة).

ثم قام الباحث بتفسير المعاني والتأويلات من خلال الإجابة علة: هل الأسر البريطانية تعي نفس المعاني للأسر الأخرى (أي قام بدراسة الاختلافات في المعاني). باستعمال بعض النظريات لـ بارث Barth.ومن أهم نتائج الدراسة:

- مشاهدة التلفزيون خلقت ديناميكية جديدة وهي فعل اجتماعي ثقافي.
- خلقت مشاهدة التلفزيون نوع من التفاعلية المشترة بسبب وجود هذه التكنولوجية المنزلية الجديدة.
- أصبحت التكنولوجيا امتداد خارجي للإنسان.

7-مزايا وعيوب المنهج الاثنوغرافي:

أ- مزايا المنهج الاثنوغرافي:

- عدم وجود فرضيات مسبقة.
- يعتمد على المعايشة المباشرة ويقوم على دراسة حالة واحدة في المجتمع أو الجماعة.
- يتم في البيئة الطبيعية للسلوك الاتصالي.
- يهدف إلى فهم السلوك الإنساني.
- يقدم تحليل دقيق وعميق.

ب- عيوب المنهج الاثنوغرافي:

- يتطلب وقتا طويلا وجهدا طويلا.
- صعوبة التعامل مع المبحوثين (اللغة، والعادات، والتقاليد، والديانات...).

- خلفية الباحث قد لا يسمح له بالمشاركة في بعض النشاطات والممارسات.
- وجود الباحث وسط الجماعات قد يجعل المبحوثين يتصرفون بتلقائية كما هم في حياتهم العادية.
- وجود الباحث لفترة طويلة مع جماعة ما، قد يجعله يتعاطف مع المبحوثين ويتخلى عن الموضوعية.
- يتطلب مهارة عالية في الملاحظة والتسجيل.

أ- دراسات أخرى:

- **دراسة ا.د. علي قسايسية: "المنطلقات النظرية و المنهجية لدراسات التلقي.**

هي دراسة نقدية وتقييميه للأبحاث الأكاديمية على مستوى كلية الإعلام و الاتصال بجامعة الجزائر، الباحث قام بجمع 06 أطروحات دكتوراه خلال الفترة من 1995 الى 2006 تهتم بدراسات الجمهور كموضوع للتأثير المفترض لواحدة من وسائل الإعلام التقليدية والالكترونية وقد تناولت العينة مجموعة من مختلف أصناف الجمهور من متفرجين مسرحيين الى مبحرين على الانترنت مرورا على مستمعي الإذاعة وقراء الصحف ومشاهدي التلفزيون.

- **دراسة وردة قراينية: أنماط تلقي البرامج التلفزيونية لدى الأسرة الجزائرية.**

قامت الباحثة بدراسة أنماط تلقي الأسرة العربية العاصمية الجزائرية باستخدام المنهج الاثنوغرافي حيث قامت الباحثة بالتعرف على عادات تلقي وتأويل الخاصة بأفرادها واختلافات التأويل فيما بين افراد الاسرة الواحدة من خلال السمات الديموغرافية (السن، النوع، درجات التدين، العادات، اللهجة ...)

- **دراسة كنزة حاج حامدري " دور التلفزيون في تشكيل بعض القيم لدى المرأة الريفية الجزائرية"**

ركزت الباحثة على ثلاث مناطق من الجزائر وهي عبارة عن قرى من مختلف ولايات الشمال الجزائري، حيث تتوفر فيه شروط المبحوثات للتوصل الى نتائج صحيحة، واعتمدت على المقاربة الاثنوغرافية، وتعتبر دراسة الباحثة محاولة لفهم كيفية تشكل القيم لدى المرأة الريفية الجزائرية وتغيير القيم التي كانت سائدة وترسيخ قيم جديدة من خلال الادراكات الناجمة عن التلفزيون في السياق المنزلي.

هدفت الدراسة الى ابراز الفرق بين المجتمع الحضري والريفي وبين الجنسين في تفسير القيم التي تتضمنها التلفزيون، وعادات المشاهدة التلفزيونية لدى المرأة الريفية، ومعرفة القنوات المفضلة بالنسبة لها ومدى ترسيخ البرامج التلفزيونية لقيم جديدة لدى المرأة الريفية.

- **دراسة مريم دهان: "أنماط المشاهدة التلفزيونية لدى المجتمع الميزابي"**

قامت الباحثة بدراسة اثنوغرفية على عينة تتكون من 08 اسر من مدينة غرداية كونه مجتمع يعيش داخل نسق اجتماعي وثقافي وسياسي وديني خاص به فهو متمسك بعاداته وتقاليده وعرقيته رغم التطور التكنولوجي، اعتمدت الباحثة على أداة الملاحظة المباشرة والمقابلة النصف موجهة، ولقد عايشت الباحثة هذه العائلات وخصصت لكل عائلة أسبوع كي يعتادوا عليها ثم بدأت بالملاحظة والمقابلة وعرفت مختلف عادات المشاهدة التلفزيونية لدى المجتمع الميزابي وأهم البرامج التي يتابعونها والقنوات المفضلة لديهم وكيفية تأويلهم للرسائل الإعلامية التي يتلقونها وأخذت

مسألة الجنس والسن والمستوى التعليمي في عين الاعتبار ورصدت الاختلافات بين الأسر وبين افراد الأسرة الواحدة ، وحاولت معرفة لمن تكمن السلطة في اختيار البرامج التلفزيونية.

خلاصة:

أصبح المنهج الاثنوغرافي مهم للوصول لمعرفة ما يجري بداخل الأسر أو الجماعة بصفة عامة، بالتحليل الاثنوغرافي، حيث يعتمد على الخلفيات ومعرفة الاختلاف في السلوك والقيم.

لكن يجب على الباحث اتخاذ لون وشكل المجتمع المدروس، والسياق العام للتطور التاريخي للمجتمع المدروس بصفة عامة وخاصة مدى تطور وسائل الاعلام والاتصال لمعرفة سلوك الجمهور أو المستخدمين. مع تكيف النظريات السابقة (نظريات التلقي) مع الظواهر الجديدة والمقاربات النظرية والمنهجية من طرف الباحث وذلك بتطور الوسيلة ومحاولة تكييفها مع الواقع الجديد (مثل استخدام تطبيقات ووثائق الكترونية)، لوجود عالم أو فضاء اتصالي جديد (المجتمعات الافتراضية).